مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية
ISSN : 2353-0529 EISSN 2600- 643X
المجلد 9 / العــدد: 04 (2021)، ص 07 - 25

إشكالية الابداع في ضوء المنحنيات التاريخية للحضارة

الدكتور :سحوان عطاء الله **الدكتورة : بن سكيم بسمة**

جامعة الجلفة- الجزائر. **جامعة الجزائر 2- الجزائر.**

تاريخ الاستلام: 2021/07/18 **تاريخ القبول:2021/07/31** **تاريخ النشر : 2021/12/21**

ملخص باللغة العربية:

الحضارة منظومة اجتماعية تتحقق في ظل وجودها التنمية الشاملة لكل المؤسسات الاجتماعية حيث يحدث اشباع للحاجات والمتطلبات الضرورية للفرد والجماعات من الناحية البيولوجية والسيكولوجية والسوسيولوجية مع ما يصاحب ذلك من ازدهار لسوق الابداعات والاختراعات في كل ميادين الحياة واتساع للحوض المعرفي للجماعة الذي يشكل خزانا تاريخيا كبيرًا في عالم الإمكانات والاحتمالات.

الكلمات المفتاحية : الإبداع ؛ الحضارة ؛ الخرائط المعرفية ؛ التنمية الشاملة والمتكاملة ؛ المنظومة الحضارية ؛ المشتلة التاريخية ؛ الإبداعات المعرفية

Summary in English:

Civilization is a social system that achieves in its existence the comprehensive development of all social institutions, where the needs and requirements of the individual and the groups are biologically, psychologically and sociological together with the accompanying prosperity of the market of creations and inventions in all fields of life and the expansion of the knowledge base of the group, And possibilities.

المؤلف المرسل: سحوان عطاء الله

مقدمة:

التحديث عملية تاريخية يقوم بها الانسان على مستوى الخريطة التاريخية للجماعة في اللحظة التاريخية التي يتم فيها تحويل العلاقات الاجتماعية على مستوى المنظمات من حالة الصراع إلى حالة التعاون وتتجدد القيادات التاريخية على مستوى كل المنظمات وعن طريق تشبعها بالفعالية المستمرة في هذه اللحظة يتم استيطان الحضارة القائمة على بعدين أساسيين: احياء التراث وتوطين الحداثة، انها حالة اعلان للميلاد التاريخي للمجتمع وبداية الإنتاج و الابداع وتكوّن للأحواض المعرفية والخروج من التبعية إلى الاستقلالية ولا يكون ذلك إلا في ظل تعليم راق وعدالة اجتماعية حقيقية فالظلم آذان بخراب العمران والعدل أساس الملك.

1- الأسس النظرية للإبداع انطلاقا من خرائط معرفية متباينة :

حاول جان بياجيه أن يفسّر ظاهرة الابداع من خلال التمرّد الاجتماعي والتكيف الاجتماعي وكلاهما يفرز إبداعًا معيّنا، حيث أن التمرد الاجتماعي يعني الابتعاد عن التقاليد الراسخة في الجماعة في التفكير والسلوك والذي يفضي عند الموهوبين إلى ابتكارات بينما التكيف قد يفضي إلى المحافظة على المكاسب فقط.

«قدم جان بياجيه نظرية تطورية غير متّصلة، واستعملت هي الأخرى في تفسير الميول والنزعات الإبداعية، فالتصنيف الناضج مثلا هو أحد إنجازات بياجيه لمرحلة العمليات المادية، وهي مهارة يمكن أن تؤدي دورًا مهمًّا في التفكير الإبداعي، ان حلّ المشكلات الإبداعي قد مثلا يتطلب عمليات تصنيفية عندما يقرّر الفرد فيما إذا كان سيستطلع خطا فكريًا معينا بناء على الحكم عليه إن كان مقبولا من المجتمع أم لا. وهذا الحكم بحد ذاته هو نوع من التصنيف، وإذا تجنب الفرد شيئالأنه غير مقبول في المجتمع، فإن ذلك سيقوده إلى نوع من الالتزام بالتقاليد ومسايرة المجتمع، مما يحدّ من احتمال حدوث الاستبصار الإبداعي. كما

يعتمد نموذج بياجيه على التكيف لتفسير عملية التطوّر والتكيف وقابلية التكيف هي إحدى المرادفات الشائعة القريبة جدّا من الابداع كما أن نموذج "بياجيه" يفسّر التكيف في ضوء التمثل والمواءمة ويساعدنا التمثل في فهم التحوّلات التي تقود أحيانا إلى أفكار إبداعية أما المواءمة فهي التي تفسّر لنا الاستبصارات المفاجئة التي تميز كثيرًا من لحظات وجدتها الابداعية».

ولا يهتم الفرد عادة بالتمثل ولا بالمواءمة مالم يشعر أنه بحاجة إلى التكيّف، ويحدث التكيف كما يعبر عنه بياجيه عندما يشعر الفرد بنوع من عدم التوازن الذي يحدث عندما لا يفهم الفرد خبرة معينة أو معلومات معيّنة (لا يكون الفهم في حالة توازن مع المعلومات) أو في أوقات الشدة، يفترض كثير من هذه الأفكار أن التطور عملية غير متصلة، ولكن هناك نظريات ترى أن التطوّر عملية متصلة، وترى هذه النظريات أنه لا حاجة إلى حدوث مراحل في التطوّر وأن التطوّر عملية مستمّرة ومتصلة، وقد قدّم ليفاين انتقادات خاصّة بتطبيق نظرية بياجيه في مجال الابداع كما اعتمد رويتر ورفاقه على الدراسات البيولوجية المعمقة في علم الوراثة لتحديد أهم الجينات الوراثية المسؤولة عند الابداع، ووجودها عند بعض الناس دون غيرهم.

«استخلص رويتر ورفاقه من الدراسات الجينية المتعلقة بالشخصية (كالاهتمام الاستكشافي والتلهف لحلّ المشكلة) التي تحفّز بطبيعتها الدوبامين، ما يقترح وجود مورثات معينة ذات صلة بالإبداع، فطرحوا فكرة أن مستقبلا واحدا للدوبامين قد يكون المسؤول عن القدرة الإبداعية، كما أشار "نويل" (2000) قبل ذلك إلى أن أكثر الليلات الجينية (ollele) مسؤولة عن الابداع في 30٪من الناس تقريبا، على الأقل في أوساط القوقازيين، (عادة يبقى عامل الخلفيات العرقية ثابتا في الدراسات الجينية، بمعنى أنّها تقلّص التباين الذي قد ينشأ، وذلك من خلال دراسة مجموعة عرقية واحدة. إن دراسة القوقازيين هي مجرّد متطلب للتجربة،

كما أبقى باحثون آخرون عامل العرق ثابتا، وقاموا بدراسة مجموعات أخرى إلى جانب القوقازيين). أشار رويتر و رفاقه إلى احتمال وجود صلة بين Tryptophane hydroxylase gene- tphi(جين ترابتوفانهيدوكسيليز) وبين التفكير الإبداعي» **1**.

وقد أخذت عيّنات جينية من92 فردًا أخضعوا لسته اختبارات إبداعية، ثم ربط جين TPHI بالإبداع اللفظي وبمؤشرات ابداع كلي، أما الأفراد الذين يحملون جين Allele A1 فحصلوا على درجات أعلى في الإبداع على الأقل على مؤشر واحد (الابداع اللفظي) وعلى المؤشر التجميعي. وقد تبيّن وجود صلة عالية الدلالة بين "أليل" tph وبين الابداع الرقمي والابداعي العددي ومؤشر الابداع الكلّي، وهناك جين ثالث (سيرونورجيك) يدعىCompsnp، لا يرتبط بمؤشرات الابداع، وليس لمواضيع هذه الجينات الثلاثة أي صلة بالذكاء التقليدي.

وللأهمية نقول إن « رويتر" ورفاقه (2005) ألمحوا إلى تأثير المورثات على عملية النقل العصبي، وتمثّل نتائجهم المنظور العصبي ذاته الذي تمثل كافة الدراسات التي عرضت سابقًا، لكنهم ركزوا على مستوى مختلف من التحليل (البنى العصبية، وليس البنى الدماغية)، ويعزّز هذا البحث مبرّر كتابة هذا الفصل، حيث يعكس التفاعلات البيولوجية بين المورثات و التشريح العصبي وبعبارة أخرى إنّه يجسّد الفجوة بين البحث العصبي والبحث الجيني، فقد أشار (رويتر) ورفاقه إلى بروزات (نتوءات) دوبامين في القشرة الوسطى وفي مقدمة الدماغ والمعروف أن هذه البروزات تتشارك في الوظائف المعرفية، وبالتالي يمكن أن نفترض أنها تشترك في عمليات التفكير الإبداعي.

إن هذه مقولة مقلقة فعلاً نستنتج من الأداء المعرفي عمومًا والابداع تحديدا، ولكنها تصبح مقبولة حتمًا في هذه المرحلة من البحث الوراثي حول الإبداع، لاحظ أن هذا المنطق مع البحث التشريحي (غير الجيني) الذي تمت مراجعته سابقًا. الأمر الذي يعطي دورًا متميّزًا للفصوص الأمامية، وقد يكون هناك

شيءٌ من الارتباط بين أليلDRD_2 وإصرار بعض المبدعين أو هوسهم آخذين بالحسبان دوره في إدمان النيكوتين وربما الكحول، أما ايزنك فقد أوضح كيف يمكن لاستقبال الدوبامين أن يفسّر علاقة الابداع بالأمراض النفسية، وقد دل على ذلك بالمثال التالي:

(نقص) الكيت الكامن ← دوبامين D_2 ← DNA

P

حيث تمثل P ميلا نحو الانفصام، وهذا يدل على وجود متغير انفعالي يجعل الشخص ميالا للاضطراب العقلي إذا تعرّض إلى توتر كاف، كما يحتوي على حزمة من السمات الشخصية ذات الصلة بالشخصيات الذهانية النموذجية وحتى في مرحلة ما قبل الذهان، كما أن الذهانية ترتبط بالمؤشرات المختلفة للمقدرة الابداعية»**2** .

من جهة أخرى فإن العالم الروسي فيلتشر قدم نظرية متكاملة في مجال الابداع والاختراع والابتكار التكنولوجي سماها نظرية الحلّ الإبداعي للمشكلات (TRIZ) وهذا بعد دراسته لتاريخ الابتكارات البشرية في مجال التكنولوجيا فوجدها تقوم كلها على 40 مبدأ هذه النظرية كانت الأساس العلمي للصناعات الحديثة في روسيا.

«نظرية الحلّ الابتكاري للمشكلات (TRIZ) وهي من النظريات الحديثة نسبيًا في مجال الابداع، بالرغم من أن جذورها تعود إلى القرن المنصرم، وقد أجريت البحوث الأصلية على يد هنري التشلر الذي تنسب إليه هذه النظرية.

وتشكل نظرية (TRIZ) التي ظهرت بداية في مجالي الهندسة والتكنولوجيا، نموذجًا عمليًا للنظم المستندة إلى قاعدة معرفية تستخدم طرائق وعمليات

لاستيعاب المعرفة وبنائها وتوظيفها في حلّ المشكلات، وتتكون القاعدة المعرفية الواسعة لهذه النظرية من أكثر مليوني براءة اختراع، مثلت حلولا ناجحة للمشكلات التقنية التي تناولتها. وتقترح هذه النظرية إجراءات محددة وأدوات تمكن مستخدمها من تطبيق قاعدة المعرفة في توليد حلول جديدة، ولا يقتصر دور هذه النظرية على تقديم حلول للمشكلات الراهنة فقط، ولكنها تقدم إضافة إلى ذلك تعميمات حول نماذج تطوّر النظم التقنية، وعليه فإن هذه النماذج تساعد على التنبؤ بتطور هذه النظم وتعمل على الإسراع في حدوث ذلك بشكل مقصود.

لقد أدرك هنري التشلر عندما كان يعمل مستشارًا في دائرة توثيق الاختراعات في البحرية السوفيتية، أن بين الكم الهائل من الاختراعات التي قام بتحليلها أفكارًا متشابهة وحلولا متماثلة لمشكلات مختلفة حدثت في مجالات وفترات زمنية متباينة، مما يشير إلى وجود نماذج عامة في الاختراعات الإبداعية، وأدرك كذلك أنه إذا تمكن من اشتقاق هذه النماذج من قاعدة البيانات الضخمة للمخترعات التي قام بتحليلها، فإن ذلك يمكن أن يساعد الناس كي يصبحوا أقل اعتمادًا على الصدفة أو المحاولة والخطأ في الابداع»3

بينما قام العالم المالطي إدوارد دي بونو بدراسة معمقة لطرق التفكير المنطقي عند البشر والتي تقدم حلول وابداعات معرفية متجددة ثم وضعها بعد ذلك في برنامجين مشهورين: برنامج الكورت، برنامج القبعات الست.

«الابداع موضوع شائك مثير للجدل ويبدو أنّه يتدرّج من تطوير غطاء جديد لأنبوبة معجون الأسنان إلى تأليف السمفونية الخامسة لبتهوفن. وتظهر كثير من الصعوبات نتيجة الالتباس بين كلمتي "المبدع" و"الابداع" تعني كلمة "المبدع" على أبسط المستويات هو الاتيان بعمل لم يكن له وجود قبل ذلك، على سبيل المثال، "خلق فوضى" يعتبر مثالاً الابداع، حيث لم تكن الفوضى موجودة وقد جئنا بها إلى

حيز الوجود. ومن ثم ننسب بعض القيم للنتيجة، وبالتالي فإن الشيء الجديد لابد أن يحمل قيمة ما. نكون قد بدأنا عند هذه النقطة في الحصول على إبداع فني لأن ما يقدمه الفنان هو شيء جديد ذو قيمة... وأعتقد أنه من الأفضل النظر مباشرة لسلوك التنظيم الذاتي لأنظمة المعلومات فهذه الأنظمة تحاكي أنظمة أخرى، فهم يستخدمون ويضعون نماذج، ومن خلال تحليل السلوك والسلوك المتوقع في مثل هذه الأنظمة يمكننا الحصول على فكرة واضحةٍ عن طبيعة الابداع. وعندها ينكشف الستار عن الغموض الذي يحيط بالإبداع، ونرى كيف يعمل الابداع، كما يمكننا أن نرى كيف يمكن أن نشتق أساليب معينة لتزيد من احتمالات الأفكار الجديدة، وبمعنى آخر نحن نعمل للنظر في منطق الابداع، إن منطق الابداع هو منطق محاكاة أنظمة، كما سنرى في فصل لاحق، وليس هناك صندوق أسود مكتنف بالأسرار مكتوب عليه (هنا يحدث كل شيء)، إن معنى الابداع هو كشف الأمور» **4** .

من جهة أخرى قام العالم البريطاني توني بوزان ببحث عميق في الحضارات القديمة من خلال المخطوطات وفي الحضارة الحديثة من خلال دراسته لعلم التشريح العصبي اكتشف إثر ذلك طريقة جديدة وفعالة في تسجيل المعلومات والتخطيط للإبداعات تسمى الخريطة الذهنية هذه الخريطة الذهنية يمكنها تشغيل الدماغ بشقيه الأيمن والأيسر.

«يقوم الابداع على استخدام النطاق الكامل للمهارات الذهنية لشقي المخ الأيمن والأيسر واللذين يشملان:

أ-الكلمات، المنطق، الأعداد، التسلسل، التفكير الخطي، التحليل، القوائم.

ب-الإيقاع، الادراك المكاني، الجشتالت (إدراك الصورة الكلية)، التصوّر والخيال، أحلام اليقظة، الألوان، الأبعاد.

المجموعة الأولى من الكلمات هي مهارات الشق الأيسر من المخّ، هي اتي تقيّم وتدرس في المدارس، ومع ذلك فإن مهارات الشق الأيمن هي الأقلّ تقييمًا كما أن الأمر لا يقتصر على عدم تدريسها فقط وإنما احباطها في المدارس»**5** .

ولقد انتشرت طريقة الخرائط الذهنية في مختلف أنحاء العالم، حتى أن فنلندا التي يمثل نظامها التعليمي أحسن نظام تعليمي في الاتحاد الأوروبي، قد تبنت استعمال هذه الطريقة من الابتدائي إلى الجامعي.

2-الأسس التاريخية للتنمية الشاملة والمتكاملة :

معادلة التخلف الحضاري هي معادلة شاملة تشمل جميع المنظمات من الأسرة إلى الدولة تشمل الأمراض الوبائية حين تنتشر، ولهذا يقول مالك بن نبي: ان الفرد يدفع ضريبة الانتماء الاجتماعي.

«عندما يتخلّف المجتمع لسبب من الأسباب، كأن يكون ذلك جراء الحروب، أو الكوارث الطبيعية أو التخلّي عن عقيدة أو عن مذهب أو بسبب النزاعات الداخلية أو الخارجية، فإن الفرد يتخلّف، وينجم عن تخلّفه تخلّف الفكر والثقافة، والعلم، وبالتالي تقهقر وتراجع الحضارة، ومن أجل التحدي لتقهقر وتراجع الحضارة، وإعادة الكرّة لبعث الإقلاع الحضاري، ينبغي تأسيس مشروع التنمية الشاملة والمستدامة التي تقوم أساساتها على مشروع تنمية الثقافة.

وإذا ما نجحنا في مشروع تنمية الثقافة، تحصلنا على ثقافة التنمية، وبهذه الأخيرة سننجح في مشروع تنمية الفكر والعلم والنهضة والحضارة والمجتمع، بمعنى أنه لا تتم أيّة تنمية في أي مجال بدون البدء بالتنمية الثقافية، لأن الثقافة التنموية هي التي تؤهل سلوك الفرد والجماعة والمجتمع والأمة إلى الثقافة الإيجابية (السلوك الإيجابي) الفعّالة التي تغير الواقع، من واقع سيِّء إلى واقع أحسن.

وبناءً على ذلك، نصل إلى القول بأن برنامج العمل النهضوي والحضاري يبدأ أولا بالتنمية الثقافية وثانيا بالتنمية الفكرية وثالثا بالتنمية العلمية، وهذه الأنواع الثلاثة من التنمية تخوّل للفرد والجماعة والمجتمع والأمة وضع مشاريع تنموية ناجحة التنمية الآتية: تنمية المنظومة الفكرية للأمة، تنمية المنظومة الفلسفية، تنمية المنظومة السياسية، تنمية المنظومة الاقتصادية، تنمية المنظومة الاجتماعية، تنمية للمنظومة الأخلاقية، تنمية المنظومة الإدارية، تنمية المنظومة الأمنية، تنمية المنظومة العسكرية، تنمية منظومة البحث العلمي، تنمية المنظومة التقنية، تنمية المنظومة التربوية، تنمية منظومة التكوين المهني، تنمية المنظومة التعليمية.

فالثقافة التنموية هي مصدر كل أساسات ومجالات التنمية في المجتمع لأن الثقافة التنموية هي السلوك التنموي لدى الفرد والجماعة والمجتمع والأمة، فالإنسان يكوّن الثقافة التنموية، وهي بدورها تكوّن الإنسان التنموي، وكلما ازدادت الثقافة التنموية في تكوين الانسان التنموي، ازداد الانسان بدوره في إنتاج الثقافة التنموية، وبذلك يتوفر لدى الانسان التنموي، الثقافة التنموية، وبهذا الطراز النوعي يصبح في مقدوره الخوض في تأسيس مشاريع تنموية في جميع ميادين الحياة، وبذلك يشيّد الحضارة في المجتمع والأمة» **6** .

فالتنمية الاجتماعية تقوم على ثلاث منظومات أساسية: المنظومة الثقافية، والمنظومة الفكرية، والمنظومة المعرفية، والاستثمار في إحياء هذه المنظومات الثلاث يعتبر الشرط الأساس لتوطين التنمية في المجتمع من جهة أخرى فإن التنمية تعتبر عملية تحرّر شامل من السجون والمعتقلات التاريخية على مستوى الفكر والسلوك.

«يمكن اعتبار على أنّها تمثل عملية تحرّر شاملة، سياسية واقتصادية واجتماعية، وأن مراميها وأهدافها يصعب تحقيقها دون إدارة سياسية واعية، وأنها

عملية تحوّل اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي معًا، وتمثل نهوضًا حضاريًا، وليس مجرّد ارتفاع في متوسط دخل الفرد دون النظر إلى النواحي الأخرى من عملية التنمية، خصوصا ما يتعلق بها من توزيع الدّخل والايفاء بالحاجيات الضرورية للسكان، كما لابد أن تكون كما يرى رمزي زكي مستغلّة، متعمّدة على الذات، متجهة للداخل، مشبعةً للحاجات الأساسية، متضمنة لقدر من المشاركة الشعبية، تنمية لا تعتمد على آليات السوق التي عجزت عن توفير التوزيع العادل، تنمية اقتصادية واجتماعية وسياسية في وقت واحد، ومن ثمّ يجب الابتعاد عن الجوانب التقليدية وطريقة المحاكاة... ولهذا فإنه يجب أن ننظر إلى التنمية على أنها نتاج تجربة داخلية لا يمكن تقليدها واستيرادها لأنها في حقيقة أمرها لا تستورد ولا تستعار من الآخرين لأنها ببساطة عملية مجتمعية مركبة يتم تخطيطها عن وعي وتصنع بالجهد والابداع الذاتي منها الفكري والتنظيمي والمادي، وبذلك فإن المشكلة الجوهرية تتمثل في اختيار الطريق السليم الموصل إلى تحقيق التنمية المنشودة، ومعرفة شتى أنواع معيقاتها وتحديد سبل وكيفيات تجاوزها، ولهذا يتطلب الاستبسال في بذل جهد فكري مكثف ينبجس من داخل الدول النامية يسعى إلى تحديد أهداف واستراتيجيات ملائمة للتنمية، لأن الفكر التنموي الغربي الذي يصدر إلينا لا يستوعب واقع هذه المجتمعات النامية من داخلها ولا يقوى على فهمها فهمًا واقعيًا وموضوعيًا، بل في حقيقة أمره يخدم أغراضًا سياسية خفية من خلال ما يقدمه من نظريات وأفكار بعيدة عن المشاكل الواقعية للتنمية، مما جعل معظم التناقضات والتجارب الفاشلة في تطبيق التنمية تنجم عن هذه الأفكار والنظريات التنموية الغربية....»**7** .

انطلاقا مما سبق فإن مشروع التنمية يعتبر مشروع تجدّد وإصلاح شامل للفرد والجماعة والراعي والرعية ينطلق من هوية الجماعة وذاتيتها وغير مستورد

يعالج جميع مشاكل المنظمات الكبرى والصغرى انطلاقا من العلوم الاجتماعية والإنسانية.

«في مطلع تسعينات القرن العشرين وقعت عيناي صدفة على بيانات عن غانا وكوريا الجنوبية في أوائل الستينات، وأدهشني أن رأيت مدى تماثل الاقتصاد في البلدين آنذاك، كان البلدان شبه متقاربين من حيث مستوى نصيب الفرد من إجمالي الدخل القومي، ومن حيث مدى تماثل قطاعات اقتصادهما في مجال المنتجات الأولية والتصنيع والخدمات، إذا كانت الغلبة الطاغية على صادرات كوريا الجنوبية من المنتجات الأولية حيث لم تكن تنتج سوى القليل من السلع المصنعة، كذلك كان البلدان يتلقيان مساعدات اقتصادية على مستوى واحدٍ تقريبًا، ولكن وبعد مرور ثلاثين عامًا، أصبحت كوريا الجنوبية عملاقًا صناعيًا يحتل المرتبة الرابعة عشر بين أضخم الاقتصادات في العالم، والشركات متعددة القوميات والصادرات الأساسية من السيارات والمعادن الإلكترونية وغير ذلك من الصناعات المقدمة... زد على هذا أنها خطت على الطريق لدم المؤسسات الديموقراطية، ولم تشهد غانا تغيرات مماثلة، إذ لايزال نصيب الفرد من الدخل القومي فيها حوالي خمس نظيره في كوريا الجنوبية، كيف لنا أن نفسّر هذا الفارق المثير في التنمية؟ لاريب أن ثمة عوامل كثيرة لها دورها المؤثر، ولكن بدا لي أن الثقافة لابد أن لها دورًا أساسيًا في التفسير، اذ أن الكوريين الجنوبيين يعلون من قيمة الاقتصاد المزدهر والاستثمار والعمل الجاد الشاق، والتعليم والتنظيم والانضباط، هذا بينما تسود الغانيين قيم مغايرة، صفوة القول: الثقافة لها دورها المؤثر.

واقترب باحثون آخرون إلى هذه النتائج نفسها في مطلع التسعينات، وجاء هذا التطوّر كجزء من تجدد الاهتمام على نحو كبير بين العلماء الاجتماعيين، ونعرف أنه في أربعينيات القرن العشرين حظيت الثقافة باهتمام كبير باعتبارها

عنصرًا حاسمًا في فهم المجتمعات، وتحليل الفوارق فيما بينها، وتفسير تطورها الاقتصادي والسياسي، ونذكر من بين هؤلاء الباحثين كلا من مارجريت ميد، وروث بنيديكت، ودافيد ماكليلاند، وإدوارد بانفيلد، وأليكس أنكيليس....ولكن في أعقاب هذا التراث الأدبي الغني الذي أنتجه هؤلاء الباحثون تهاوى في حقل الثقافة داخل المجتمع الأكاديمي وانخفض حجمه بشكل درامي خلال ستينات وسبعينات القرن العشرين.

ثم بدأ الاهتمام بالثقافة ينتعش من جديد خلال الثمانينات باعتبارها إحدى المتغيرات للتفسير، ولعل أبرز وأهم إسهام في عملية الاحياء هذه، وأكثرها اثارة للجدل هو كتاب لورانس هاريزون، الموظف السابق في برنامج الولايات المتحدة للمساعدة إيد Aid، والذي صدر عن مركزهارفارد للشؤون الدولية عام 1985، ويحمل الكتاب العنوان التالي: «التخلف حالة عقلية حالة أمريكا اللاتينية» واستخدم كتاب هاريزون دراسات حالة موازية لإثبات أن الثقافة في الغالبية العظمى من بلدان أمريكا اللاتينية كانت العقبة الأولى والأساسية على طريق التطوّر، وأثار تحليل هاريزون عاصفة من الاحتجاجات من جانب الاقتصاديين والخبراء لشؤون أمريكا اللاتينية، والمثقفين في أمريكا اللاتينية، ولكن بدأ كثيرون من هؤلاء خلال السنوات التالية يرون أن دراسته تتضمن عناصر صائبة وصحيحة»**8** .

وعلى هذا الأساس فان التحليل الذي قدمه صمويل هنتغتون يؤكد أن القيم الثقافية الإيجابية التي تبناها المجتمع الكوري والمتمثلة في: الاقتصاد، الاستثمار، العمل الجاد والشاق والتعليم والتنظيم والانضباط هي التي أنقذته من التخلف بينما القيم الثقافية السلبية الراسخة في المجتمع الغاني هي التي أبقته متخلفاً.

«تتميّز أدبيات التنمية البشرية المستدامة والشاملة عن أدبيات التنمية الاقتصادية التقليدية بتشديدها بشكل خاص على مشاركة الشعب في مختلف جوانب عملية التغيير الكمي والنوعي، أي الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، فتذهب أبعد من مجرّد رفع معدلات الدخل السنوي للفرد والنمو الاقتصادي، انها دعوة لتنمية القدرات الإنسانية بهدف تأمين الانصاف في توزيع فوائد التنمية والعدالة الاجتماعية والتغلّب على الفقر، وتنشيط المجتمع المدني أو مشاركة مختلف طبقات المجتمع وفئاته وأقاليمه، ومن ذلك مشاركة المرأة في الحياة العامة.

على نقيض النموذج التقليدي للتنمية، تتمحور التنمية البشرية المستدامة حول البشر، فلا تعتبر النموّ الاقتصادي غاية، بل وسيلة في خدمة الانسان، انها تهدف إلى توزيع فوائد التنمية توزيعًا عادلاً، وتشمل بين مهماتها المحافظة على البيئة وتحسين الفرص بحيث يتمكن البشر من التحكم بعملية التغيير، كذلك أعطت أولوية للفقراء بتوسيع الفرص والخيارات المتاحة لهم بما يوفّر لهم إمكانيات المشاركة في صنع القرارات، ان مسألة التخفيف من الفقر هي في مقدمة الأولويات، كما أن وضع البشر على رأس الأولويات التنموية يقتضي التركيز على تعزيز موارد تعليم الناس الذين هم نقطة الانطلاق وغايته النهائية.

باختصار، ان التنمية البشرية المستدامة الشاملة تقوم على قواعد مشاركة مختلف الطبقات والفئات في عملية التغيير بهدف تحقيق العدالة الاجتماعية أو الانصاف في توزيع الثروة الوطنية، وعلى صعيد نوعي تميّز التنمية البشرية بين الأهداف والوسائل، الانسان هو الهدف الأول لا السِّلع ولا الدخل أو الممتلكات»**9** .

انطلاقا مما سبق فإن التنمية البشرية المستدامة تهدف إلى خدمة الانسان داخل الجماعة بتثقيفه وتعليمه وفتح مجال المشاركات لكل الطبقات الاجتماعية دون تمييز بهدف تحقيق العدالة في توزيع جمع الثروات والمكتسبات.

3-المنظومة الحضارية مشتلة تاريخية لإنتاج الابداعات المعرفية :

يؤكد العلامة ابن خلدون في كتابه المقدمة على أن هناك علاقة جدلية بين توسع الحوض المعرفي ووجود الحضارة في المجتمع.

«العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، والسبب في ذلك أن تعليم العلم من جملة الصنائع، وقد كنا قدّمنا أنّ الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلّة والحضارة والترّف، تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش، فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرّف في خاصية الانسان، وهي العلوم والصنائع ومن تشوّف بفطرته إلى العلم، ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعيٌّ، لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدّمناه، ولابد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة، شأن الصنائع في أهل البدو.

واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، لما كثر عمرانها صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة صدر الإسلام، كيف زخرت فيها بحار العِلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين، ولما تناقص عمرانها وابذعرّ سكانها، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام.

ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة، من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها

الصنائع وتفنّنت، ومن جملتها تعليم العلم، وأكّد ذلك فيها وحفظهُ ما وقع لهذه العصور بها، منذ مئتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدّين بن أيوب وهلمّ جرًّا. وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرقّ أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المُغِلَّةُ يجعلون فيها شركا لولدهم، ينظر عليها أو يصيب منها، مع ما فيهم غالبًا من الجنوح إلى الخير والصَّلاَحْ والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلاّت والفوائد، وكثر طالِبُ العلم ومعلِّمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بِهاَ أسواق العلوم وزخرت بحارها، والله يخلق ما يشاء»**10** .

وهكذا نجد من خلال التحاليل الخلدونية أنه كلما زادت الحضارة ازدادت العلوم والمعارف والصنائع والعكس بالعكس.

«إن مبدأ الذاتية قائم على مطلب الاستقلال والسيادة الذي ترفعه كلّ الجماعات الإنسانية التي لم تفقد بعد شعورها بقيمتها ورسالتها وانسانيتها ورغبتها بالمساهمة الإيجابية، وهو لا يقل في أهميته ونفوذه عن مبدأ المعاصرة الذي تقوم عليه إمكانية تحقيق هذه الرغبة وتجسيد هذا الشعور، فالذاتية تعني تطوير الذّات بما يبقيها على صلة مستمرّة مع الماضي والتراث ويجعل له جذورًا عميقة وقوية في التاريخ، ويفترض تحويل كل ما يدخل فيها إلى جزء منها حتى تحفظ وحدتها وتوازنها، والمعاصرة تعني في كل زمان ومكان استيعاب الحضارة وما يتطلبه ذلك من تبادل وأخذ عن الآخر وتلقّف للابداعات والاكتشافات البشرية المادية والروحية.

وهذا التناقض بين مطلب الذاتية ومطلب المعاصرة هو في الوقت نفسه أساس الأزمة التاريخية العميقة التي نعيشها مع بقية المجتمعات التي تجوزت

حضارتها، ومصدر التوتر الذي يسمح للوعي أن يتحرّر من قيوده ومن التقليد ينتج عوالم خرى وأوضاعًا جديدة، فالحضارة ليست غرضًا نشتريه أو نحوزه، إنما هي أيضا علاقات وتوازنات تاريخية واجتماعية.

ولا يمكن الحصول عليها إلا بتجاوزها، والتجاوز لا يعني الإلغاء، وإنما إنتاج حلول أفضل للمشاكل التي خلقتها الحضارة القائمة بذاتها، فمن غير الممكن اليوم، بل من المستحيل، حلّ مشكلات البلاد النامية الاقتصادية والسياسية والثقافية من منظور المؤسسات الغربية الموجودة، ومشكلات هذه البلاد لم تعد ثانوية كما كانت منذ قرن، إنها محور الصراع الدولي الآن، وهي تشكل الأزمة الحقيقية والعميقة للحضارة الراهنة والتحدي الأخير لنظمها وقيمها معًا... ولا نعتبر أن هناك من وجهة نظر النهضة تناقضا بين إحياء التراث واستيعاب الحضارة، بل العكس هو الصحيح، إن قدرتنا على الاستيعاب تزداد بازدياد انغرازنا في التراث وتمتعنا بهوّية مستقلّة وغنيّة، وأن تعمق هذه الهوية يزداد أيضا بازدياد استيعابنا للحضارة وسيطرتنا عليها، فالمدنية العربية المنشودة هي ثمرة لهذا الابداع الذي يوحد بين التراث والحضارة ويتجاوزهما في الوقت نفسه، من هنا نقول: نأخذ من الحضارة ولا نؤخذ بها، ونحيي التراث ولا نحى به ونرفض الحلول السهلة، ونرفض التقليد من أي طرف جاء»**11** .

فالحضارة تشبه الشجرة جذورها تمثل الذاتية والهوية الجماعية، بينما جذوعها وأغصانها وأوراقها وثمارها تمثل الحداثة والمعاصرة، والقانون الطبيعي يقضي كلما ازدادت الشجرة علوًّا ازدادت جذورها عمقاً.

«كل حديث في مشروع حضاري نهضوي عربي يعني-حكمًا-حديثا في منظومة كاملةٍ أو شاملةٍ، من الأهداف النهضوية أو قل من الأهداف التي يشكل تحقيقها تحقيقًا لعملية النهضة، لا مجال في هذا المشروع لأهداف جزئية، أو لأهداف منفصلةٍ عن بعضها انفصالا في الماهية وفي الزمن، وإلا ما كان المشروع مشروعًا،

ولا نهضويًا إلى ذلك تمثل عملية النهضة تحققا تاريخيًا ماديًّا لأهداف عدّةٍ متداخلةٍ: في مجالات متنوعة (سياسية، اجتماعية، اقتصادية، ثقافية)، ولا يمكن لعملية النهضة أن تتحقق الا في هذا السياق الكلّي الشامل الذي تترابط فيه مستويات البنية الاجتماعية ترابطا عضوياً.

التنمية الاقتصادية وحدها لا تصنع نهضة إذا كان العمران السياسي والاجتماعي والثقافي متخلفًا، والديموقراطية وحدها لا تصنع نهضة إذا لم تستند إلى تنمية اقتصادية وثورة ثقافية في المجتمع ولدى النخب، والثورة الثقافية وحدها لا تصنع نهضة إذا لم تواكبها عملية تراكم هائلة في ميدان التنمية والتطور السياسي للمجتمع والدولة على السواء.... وبالجملة، يمتنع امتناع الاستحالة انجاز النهضة في مجال أو قطاع وحيد دون آخر، بقدر ما يمتنع-على النحو نفسه- اختصار عملية النهضة على مستوى واحد من مستويات التقدم الاجتماعي،

إذ النهضة بطبيعتها شاملة سائر مجالات المجتمع ومستويات بناه، وغير قابلة-بالتالي- للإدراك على قاعدة نظرة تجزيئية أو اختزالية....

ليست هذه فرضية نظرية، كما قد يميل البعض إلى الاعتقاد، انها-بالأحرى- رؤية نظرية إلى عملية النهضة: رؤية تأخذ بفرضية التشابك والتداخل والترابط بين عناصر مشروع نهضوي ما وأهدافه، على قاعدة وعيها بأن علاقات الترابط تلك علاقات موضوعية: أي متحققة على الصعيد الاجتماعي المادي، وليست محض تمثل فكري مجرّد»**12** .

وعلى هذا الأساس فان المشروع النهضوي الحضاري في مجتمعاتنا المتخلفة هو مشروع أخطبوطي شامل لكل الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

الخاتمة:

لايزال المشروع النهضوي الحضاري وعلاقته بالتفجر المعرفي للابداعات محل دراسة وتحليل للدارسين والمتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية والمسلحين بالأدوات المنهجية الضرورية بهدف الفهم والتحليل ووضع المشاريع العلاجية للجسم التاريخي للمنظمات الماكروسوسيولوجية و الميكروسوسيولوجية المريضة في المجتمعات المتخلفة بهدف استعادة الانخراط في مخبر التاريخ بعد أن كانوا في مخبر الأساطير المعطلة للعقل والانسان والمجتمع حيث يتم استيطان المدنية والنهضة والحضارة بشروطها التاريخية التي تتصاحب كحتمية تاريخية بمنظومة الإبداعات والابتكارات المعرفية في كل المجالات.

الهوامش:

1-مارك رنكو، تر:شفيق فلاح علاونة، **الابداع**، العبيكان، ط1، الرياض1، 2012، ص:52.

2-مارك رنكو، نفس المرجع، ص:108.

3-صلاح محمد علي أبو جادو، **تطبيقات عملية في تنمية التفكير الإبداعي**، دار الشروق، ط1، عمان، 2007، ص:42.

4-إداورد دي بونو، تر: باسمة النوري، **الابداع الجاد**، مكتبة العبيكان، ط1، الرياض، 2005، ص: 27.

5-توني بوزان، **العقل القوي**، مكتبة جرير، ط1، الرياض 2006، ص:128.

6-زرواتي رشيد، **إشكالية الثقافة في التنمية بالبلدان المتخلفة**، زاعياش للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 2011، ص: 163-164.

7-رابح كعباش، **سوسيولوجيا التنمية**، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، جامعة منتوري، ب ط، قسنطينة، 2007، ص: 30.

8-لورانس هاريزون، صمويل هنتغتون، تر: شوقي جلال، **الثقافات وقيم التقدم**، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2009، ص:20.

9-حليم بركات، **المجتمع العربي في القرن العشرين**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2000، ص:955.

10-ابن خلدون، **المقدمة**، دار الهدى، ب ط، الجزائر، 2009، ص: 473.

11-برهان غليون، **اغتيال العقل**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ب ط، الجزائر 1990، ص:360.

12-عبد الاله بلقزيز، **نحو مشروع حضاري نهضوي عربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 2005، ص: 908